الدارجة المغربية
أفصح اللهجات العربية

الأستاذ : إبراهيم حركات

ليس من قبيل التعصب الضيق أن نصل الى هذه الحقيقة التي يحددها عنوان هذا البحث الصغير ، فالمسألة لها جانب تاريخي واجتماعي قبل كل شيء : ذلك أن المغرب بحكم عدم اختلاط اهله بأجناس كثيرة منذ ماقبل الاسلام وبعده لم تفسد لهاجته بقدر ما فسدت في مناطق أخرى .

فالمغرب لم يبل بحكم التتر ولا الاتراك ولا الدول الفارسية ولا غيرها من العناصر التي من شأن اختلاط العرب بها أن يؤثر في لغتهم بقدر قليل أو كثير وقد وقع ذلك فعلا في البلاد الشرقية، خاصة مصر والشام، والواقع أن المغرب بدأ يشهد تكون بعض الجاليات المسيحية من عدة بلاد أوروبية منذ عصر السعديين خاصة ، ونعلم كذلك أن عناصر مختلفة من السودان والاكراد والاسبان شاركت في الجيوش المغربية ابتداء من عصر المرابطين . بيد أن كل هذه العناصر لم يكن لها أثر يستحق الذكر بالقياس الى الاثر الذي خلفه في ميدان اللغة وفود العرب الفاتحين ثم هجرة بني هلال وبني سليم التي ان كانت قد خلفت اضرارا سياسية واجتماعية بالغة فانها سجلت أعظم أثر في تكوين اللهجة الدارجة الاصيلة بالمغرب .

على أن الدارجة بهذه البلاد قد استمدت كثيرا من أصولها من بلاد الاندلس التي حظيت باستقبال عدد ضخم من أفواج العرب الذين قدموا اليها من بلاد الشرق على العموم وخاصة الشام والعراق .

وعلى الرغم من نظرية ابن خلدون التي تقرر أن المغلوب يقلد لغة الغالب ، فان الذي حدث بالنسبة الى المغرب انه تأثر في الميدان اللغوي والاجتماعي بالاندلس الى درجة كبيرة حتى اننا نستطيع أن نؤكد أن اللهجة الحضرية بعدد من مدن المغرب كفاس وتطوان وسلا والرباط أكثرها مستمد من أصول أندلسية ، ولعل هذه حقيقة تكاد تكون معروفة بالبداهة اذا علمنا أن هذه المدن وغيرها قطنتها جاليات أندلسية في هجرات متعاقبة .

وهكذا فاللهجة الدارجة عندنا تستمد معظم أصولها من الاندلس وبني هلال وبني سليم- والباقي وهو قليل يأخذ عن البربرية ونادرا عن التركية واخيرا الاسبانية والفرنسية اللتين أضافتا الى اللهجة المغربية مصطلحات وعبارات دخيلة كثيرة .

بيد أن الناظر في اللهجة الاندلسية القديمة يجد كثيرا من الفاظها مازال جاريا على الالسنة بالمغرب ، ومن البديهي أن هذه الالفاظ ليست في معظمها الا عربية محرفة أو فصيحة . ولحسن الحظ ، فاننا نتوفر في هذا الموضوع على مصدر بالغ الاهمية خلفه لنا مؤلف مجهول من القرن التاسع الهجري وهو عصر اضمحلال الدولة المرينية وارتقاء الوطاسيين الى العرش. وهذا المؤلف هو : « الجمالة ، في ازالة الرطانة » وقد وضعه مؤلفه كما يتضح من عنوانه لتقويم اللهجة الاندلسية التي ظلت في مظهرها تحتفظ بطابع عربي أصيل . ومن الاخطاء التي نبه الاندلسيين الى ضرورة اصلاحها ، قولهم : (سكر بضم الكاف) والجوف (بضم الجيم) والمرأة تغير على وجهها . (عوض تغار) والقيح (بكسر القاف) والسلعة (بفتح السين) وطرف (بسكون الراء) ، القطيب وغيره) ويد ، ودم (بشد الاخير في كليهما) ودخان (بشد) ونخالة (بشد) ويديدة (تصغير يد ، والصواب يدية) وحك وحكة (والصواب حق وحقة) . وكل هذه الالفاظ ماتزال مستعملة بالمغرب الى يومنا هذا خصوصا في الحواضر . على ان بعض الالفاظ التي ساقها المؤلف كأخطاء اصبحت غير متداولة بالمغرب منذ وقت غير محدد ، ومن ذلك يوم السبت (بكسر السين) والجبهة (بكسر الجيم) والخط (بكسر الخاء) والبرق (بفتح) عوض البرق (بسكون)

وكيفما كان الحال ، فان الدارجة الاندلسية لاتنحرف في كثير عن العربية الفصحى . ولا تزال

اللهجة المغربية تستعمل الفاظا عريقة فى الفصاحة ، بعضها يستعمل فى الحواضر والبوادى وبعضها خاص بهذه أو تلك . على أنه لايمكن التردد فى أن فصاحة اللهجة بالبوادى كالنواحى الصحراوية وناحية الشاوية أعرق منها فى الحواضر ، اذ الاحتكاك بالعناصر الاجنبيه منذ دخول العرب الى هذه النواحى كان اقل منه فى جهات اخرى . ومن جملة الالفاظ التى لاتزال تروج فى اللهجة المغربيه ، قولهم : نتخ بمعنى سرق واصله من نتخ الطير أى خطف بمنسره ، وتلك « حسيفة » وخطرة (بمعنى المرة) وتسالى بمعنى انقضى (واصله الصحيح تسلى) وسكر الباب (بمعنى اغلقه) واصله من السريانية كما جاء فى بحث لعالم سريانى فى مجلة العربى (عدد 18 ص 106)

وكذلك نقول : ضربه الله بمعنى أضله وطنز عليه (والصحيح طنز به) وفلان مضروب على كذا (نهجه سلا والرباط) واصله من ضرب على الشىء اذا تطبع به وأولع به .

ولفظ (بالة) الذى يستعمله التجار معناه الجراب الضخم فى الاصل (فقه اللغة للثعالبى ص 67) .

وكلمة عيان بمعنى متعب ، خطأ عربى قديم عرف فى صدر الدولة العباسية ، وانتقل بنفس الصيغة الى المغرب . قال ابن السكيت « أعييت فى المشى أعيى أعيا،وانا معى ولايقال عيان» (اصلاح المنطق ص 268) .

ونقول ايضا الشوار وهو فى الفصيح : الشوار (بشد الشين وفتحها) بمعنى متاع البيت (تهذيب اصلاح المنطق للتبريزى ج 2 ص 22) .

ونقول : غوى السمن أو اللحم ، وأصله كما نص عليه أبو هلال العسكرى : بشم من كثرة شرب اللبن، أو مات هذا الا اذا لم يرو من لبن أمه ، فأصله كما أثبته أبو هلال ، الفساد (الفروق اللغويه ص 176)

ونقول : فلان غشيم ، وهو من يسهل معاملته ظلما (فروق لغوية ص 192) .

كما نقول : خربق عمله بمعنى أفسده ، وهو منحوت من خرب وخرق (والاخرق الذى لايحسن عمله) وقد شرح ذلك ابن فارس فى مقاييس اللغة (ج 2 ص 146)

والدارجة المغربية مع هذا تلتقى فى جوانب كثيرة مع الدارجة فى جهات اخرى من بلاد العرب . ومن الطريف أن نذكر أن أهل حضر موت يقولون « لرض » عوض الارض ، وبغيت بمعنى أردت و « جاوت اللى جاو » ويجيب بمعنى يحضر ورواك بمعنى أراك ، وكل هذه الالفاظ وغيرها جارية بالمغرب على نفس الصيغة. والكلمة الاخيرة « رواه » تستعمل بفاس خاصة .

ونحن فى غنى عن التنويه بفصاحة اللهجة الصحراوية فى المنطقة التى تمتد من مشارف كوليمين الى موريطانيا ، فقد تعرب بعض قبائل هذه المنطقة التى كان يعمرها منذ قرون طويلة عناصر من صنهاجة، كما انضافت اليهم أفواج من بدو العرب الذين انسجموا كليا مع السكان الاصليين . ولا يزال قرض الشعر ارتجالا أو اعدادا من الامور المألوفة فى كل أسرة تقريبا ، واكثرهم يحفظ من الشعر قسطا هاما . وقد أتيح لى منذ سنتين تقريبا أن ألمس هذه الحقيقة عن كثب فى تلكم الجهة القاصية من المغرب ، حيث تحدثت الى مسؤول فى أعماق الصحراء اعترف لى بانه لايحسن القراءة ولا الكتابة ، ولكنه انشدنى من شعر ابن الرومى والمتنبى وغيرهما شيئا كثيرا ! وزودنى بعض فضلائهم بقصائد من انتاجهم غاية فى الجزالة . وبين طان طان وكوليمين تقع مقهى متواضعة لايسع من لفحه حر الصحراء او اعتاد البساطة فى الاختلاط بالناس الا أن يعرج عليها وما كدت ادخل بابها حتى بادرت ربها مداعبا بعد السلام : وانت ياأخى تحفظ أيضا من الشعر نصيبا ؟ فما امهلنى حتى نثر من كنانته سهاما وقد رأيته يقبع فى زاوية مظلمة من مقهاه وهو يطارح رفيقا له ، فاستغربت كيف تنفذ الفصاحة والمنطق العذب الى ربع أناى مايكون عن العمران واقرب مايكون الى المفازة التى لاأنيس بها ولا مايشجع على المقام .

فاذا كانت المجامع اللغوية عاجزة أو كالعاجزة عن أن تجد فى بطون الكتب مايشفى غليلها فى اصلاح العربية أو العودة بها الى فصاحتها الاصلية ، فستجد قطعا فى الدارجة مايسد نقصا كبيرا فى هذا الباب . واذا كانت الدعوة الى استغلال الدارجة دعوة قديمة ، فان قليلين يعلمون أن لهجة المغرب أفصح لهجات البلاد العربية ، نظرا للاسباب التى مر ذكرها آنفا . ومن العبث محاولة استقصاء الامثال التى تدل على عراقة اللهجة المغربية فى العروبة ، فى بحث قصير كهذا ، ومن المناسب ان أنوه بمعجم مركز التعريب(1) الذى تضمن قسطا كبيرا من ألفاظ هذه اللهجة ، وينبغى أن يستمر هذا المجهود فى دراسة متعمقة ومقارنة ، فقد يولد فى يوم ما ، المجمع اللغوى المغربى الذى سيجد من هذا المعجم وأمثاله مادة حية تنير سبيله.

ابراهيم حركات

---

1 ـ يشير صاحب البحث الى « معجم الاصول العربية والاجنبية للعامية المغربية » تاليف الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله .